صورة الإسلام في الآداب الغربية
من العصور الوسطى إلى عصر النهضة

أ. ميلود عبيد منقور
كلية الآداب و الفنون
جامعة مستغانم.

إن الآداب الغربية في رسمها لصورة الشرق –بدءا من العصور الوسطى إلى عصر النهضة– تنطوي على أشكال من التشويه و الزيف و العداء.

لهذه الأسباب أو غيرها، ارتأينا لفت الانتباه إلى تلك الصورة القاتمة التي رسمها الغرب عن الأمة الإسلامية بهدف طمس هويتها، فكان لزاما علينا تبيين هذه النظرات الشوهاء، و الأفكار المشوهة عن الإسلام و المسلمين التي تنم عن مواقف مشحونة و مشوبة بالقوالب الدوغماتية.

حتى يمكن لنا من جهة، تصحيح الأخطاء التاريخية و تفنيد المزاعم و الرد على الاتهامات،

و من جهة أخرى، العمل على دفع " الآخر" (L'autre) إلى تحري الموضوعية والتنكب عن ألوان التحامل المعهودة، و البعد عن الأفكار المسبقة و المفاهيم المخطوءة، إذا كنا فعلا نرغب في إقامة حوار حقيقي، بنّاء و مثمر قمين بنقل الشرق و الغرب – على السواء– من دائرة التصادم و التنافر إلى أفاق التفاهم و التحاور.

وقد ركّزنا على فترتين: العصور الوسطى و عصر النهضة، فتناولنا في المحطة الأولى المسرح الديني –و أغنية رولاندا– والملحمة الإلهية لـــ " دانتي" ثم عرجنا في المحطة الثانية على المسرحية التراجيدية لـــ " فولتير" بعنوان " ماهوميت".

بات واضحا – منذ زمن بعيد – أن الغرب نظر ولا يزال ينظر إلى الشرق بعين الحذر و التقزز والإهانة ، لأن الصراع بين الغرب والشرق صنعه التاريخ وغذته السياسة، فالشعور بالعظمة و التفوق الحضاري قاد الغرب إلى فكرة نمطية شكلت التربة المناسبة لظهور أفكار تركز على التعارض و التصادم بوصف الإسلام تحديا يقتضي ردا و صدا و تدميرا.

ضمن هذا المنحى صوّر التاريخ العالمي على أنه صراع بين الغرب الديناميكي والمتحرك والمتجدد و المبدع و الحر، و بين الشرق الاستبدادي و المتعصب والراكد والمتخلف.

من هنا تنبغي الإشارة إلى حقيقة مفادها أن الغرب لم يتوان لحظة في إهانة مشاعر المسلمين الدينية، و لّما يتلكأ قيد أنملة عن الاستفزاز بمعتقداتهم وحياتهم السلوكية.

لقد أظهرت التجربة الإنسانية و مآسي الحروب مدى خطورة الأفكار والنظريات القائمة على التفوق الثقافي والعرقي والتاريخي، الأمر الذي أدّى إلى تكريس التصادم الذي دام ردحا من الزمان ولا يزال بدءا من العصور الوسطى حتى العصر الحديث، من هنا انطلقنا ، فكانت لنا وقفات في العصور الوسطى عند المسرح الديني، والملحمة الشهيرة الموسومة " أغنية رولاند " (La chanson de Rolland) والكوميديا الإلهية لدانتي (Comédie Divine) Dante، والمسرحية التراجيدية « ماهوميت" لفولتير (Voltaire)، وفي خضم هذه الحملة الشرسة التي تنضح بألوان التحامل والأفكار المسبقة و التصورات المشوهة عن الإسلام والمسلمين التي تنم عن مواقف مشحونة بالقوالب الدوغماتية، وجب علينا أن ندعو إلى حوار جاد و مثمر و متكامل يفضي إلى نظرية الإنسانية فكل الشعوب جماعة واحدة، و لها أصل واحد .مصداقا لقوله تعالى: " إنا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم " [1]. حتى يدرك كل إنسان، مهما كان نوعه أو لونه، و أينما كان موقعه، أنّه عضو في أسرة عظيمة.

وفي هذا المضمار وجدنا أنفسنا ملزمين بتصحيح الأخطاء التاريخية و رفض مقولة ادعاء احتكار الحقيقة، أو حمل صكوك الجنة، لأن المجتمع غدا سيكون تعدديا أكثر مما هو عليه، و يعيش بقرية صغيرة.

حول هذا الموضوع يقول: " هرمان هيسيه " بغية الوصول إلى ثقافة إنسانية من نوع جديد " التفاهم الجدي و المثمر بين الشرق والغرب مسألة عظيمة ليس التحويل من أي عقيدة كانت، و لكن الغاية الأساسية تكمن في مزيد من الاكتشافات والاختراعات لصالح الإنسانية، ففي حكميّ الشرق والغرب، لا يرى قوى متعادية ومعسكرين متضادين متصارعين، و لكنّ قطبين تتحرك بينهما الحياة "[2].

هنا تجدر الإشارة إلى التركيز على تكريس جسور التواصل و الالتقاء بين الشرق و الغرب و تفعيل الرابطة الروحية المشتركة أي الأرومة الإبراهيمية التوحيدية.

فالحوار الذي ندعو إليه، ليس تشابها مع الآخر، و ليس إلغاءا له، بل هو اختلاف وتعدد.

العصور الوسطى:

1-1 المسرح الديني: لم تلبث الحروب الصليبية مع تطاولها إلى نهاية القرن الثالث عشر أن تركت طابعها على الفنون و امتدت روحها الدينية إلى الأدب التمثيلي بشكل خاص[3]، فظهرت على الأثر التمثيليات المنقولة عن الكتاب المقدّس ثم المؤلفة بمعرفة رجال الدين، و أخيرا تناول غير رجال الدين تأليف هذه التمثيليات [4]

وكانت هذه العروض تقدم مع القداس في أيام الآحاد، و في أيام الأعياد الدينية، كما كان المؤلفون يحتفلون بالقديسين بعرض كراماتهم إكراما لهم و احتفاءا بهم، ومن ذلك ما جاء عن الاحتفالات بعيد القديس نقولا، لقد روت الأساطير المسيحية عنه الكثير من الكرامات [5] و استجدت بعد انتصار الحملة الصليبية الأولى من وحيها أسطورة جاء في عرضها:

"في الليلة الخامسة من شهر ديسمبر كان رجال الكنيسة يستعدون لتقديم عرض الاحتفال، فينقلون تمثال القديس من المحراب قبل دخول الناس لحضور القداس، ويحل

مكانه كاهن اتخذ جهد استطاعته هيئة التمثال في وقفته و ملبسه و سماته و شارته، وبعد هذا الاستعداد يبدأ القداس، يتوقف الكلام وينفتح باب الكنيسة على مصرعيه، ويدخل منه كاهن يمثل دور الغريب القادم من بعيد، و هو في ثوب عربي، و على هامته عمامة محلاة بالجواهر، يتقدم الأمير العربي إلى محراب القديس نقولا وينحني له مسلما ثم يعطيه كتابا نفيسا يضعه عند قدميه ليحفظه له وديعة عنده، فهو عازم على رحلة طويلة، و ما إن انصرف الأمير حتى دخل بعض الكهنة في هيئة لصوص يحملون الكتاب و يفرون بالغنيمة، غير أن الأمير العربي يعود بعد هنيهة و قد عاوده القلق والخوف للاطمئنان على الوديعة، فيجدها قد اختفت. لم يتمالك و كاد أن يصفع التمثال، فإذا به يتحرك ثم يهبط من المحراب و ينطلق في أثر اللصوص الذين اختفوا غير بعيد عن الكنيسة، فلما بوغتوا بالتمثال و هو يتقدم نحوهم – و لم يكن إلا حجرا حين سرقوا الكتاب – أخذ منهم الفزع مأخذه فهرولوا وراء القداس داخل الكنيسة، وردّوا الكتاب إلى موضعه، فإذا بالعربي مأخوذ بهذه المعجزة، و قد غلبه السرور، فيلقي بنفسه عند قدمي القديس الذي دعاه إلى النصرانية و عبادة الإله الحق على دين المسيح، فعجل على الفور>> [6] و تنتهي هذه التمثيلية على هذا الأمل الذي طالما راود الكنيسة المسيحية في تحويل المسلمين عن دينهم في البلاد التي تمت لهم فيها الغلبة[7]، و تصف المسلم و هو في أعلى هرم السلطة كأنّه غرّ مأخوذ اللب ساذج يسلس القياد للمسيحية بسهولة.

1-2 الملحمة:

1-2-1 ملحمة "أغنية رولاند Chanson de Rolland:

تعد أنشودة "رولند" من الملاحم التي تدل على أصدق تعبير عن الروح التي سادت أوروبا إزاء المسلمين في العصور الوسطى، فهي تتغنى بالبطولات الخارقة لـ"رولاند" ابن أخ "شارلمان" إمبراطور فرنسا، وأوروبا من بعد، أي نهاية القرن الثامن عشر، و هي بطولات تجسدت في موقعه "رونسيفو" عام 778 التي دارت رحاها بين مؤخرة جيش "شارلمان" العائد من إسبانيا بعد فشله في الإستلاء على مدينة

"سرقسطة" الإسلامية آنذاك، وبين مجموعة من المسلمين كمنوا لمؤخرة الجيش في القمم الصخرية لجبال "البيرينية"، واستطاعوا التغلب عليها و على قائدها " رولاند" Rolland الذي رفض أن ينفخ في بوق الاستغاثة، و آثر أن يتولى بنفسه قتال المسلمين (الكفرة على تعبير الملحمة) [8]. وأباد منهم المئات قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة مصحوبة بنفخة ضعيفة من بوق الاستغاثة نبّهت "شارلمان"، فعاد مسرعا لكي يثأر لابن أخيه و يقضي على من بقي من جيوش المسلمين، فيفتح مدائنهم و يخترق حصونهم[9].

إذا كانت "أنشودة رولاند" أكثر قدرة على التعبير عن روح الأمة الفرنسية، يكفيها دلالة على صدق هذا التصور المتمثل في رأي مؤرخ الأدب الفرنسي " أدموند أوب" (Edmond Aube) الذي يقول في ختام مقدمته لإحدى الطباعات الحديثة للملحمة سنة 1923.

"إن الشعوب الثلاثة التي حملت على التوالي شعلة الحضارة و أسلمها كل منها لمن يليه، استطاع كل شعب منها أن يقدم للعالم نموذجا أدبيا للمحارب في شكل بطل ملحمي، فقدّمت الهند شخصية " راما" في ملحمتها الشهيرة، و قدم الإغريق شخصية " اخيل " الذي تغنى "هومير" ببطولاته في "الإلياذة" أجمل عمل شعري أنتجته الروح الإنسانية، و أخيرا قدّمت فرنسا كنموذج مثالي للفارس المسيحي "رولاند" الذي يجسد حب الله و حب الوطن[10]. وعند فحصنا لهذه المقطوعة المنقولة عن المؤرخ الفرنسي " ادموند اوب " تستوقفنا ملاحظتان.

أولا: وصف " رولاند " بالمسيحية التي تجسد حب الله.

ثانيا: فرنسا تحمل شعلة الحضارة بعد الهند و الإغريق و كأني به — المؤرخ — يتعمد تلفيقا وهتانا تجاهل الحضارة الإسلامية و دورها الريادي في انتشال أوروبا من عصور الجهل والهمجية.

هذا الرأي يدل بشكل سافر وصريح على الافتراء و الزيف و ينم عن موقف مشحون بالحقد الدفين، وتكفي الإشارة في هذا المضمار إلى حقائق ثابتة لا يمكن نسيانها أو تجاهلها.

إن الإسلام منح أوروبا معارف جديدة و غرس فيها الحياة الجميلة، و الإطلاع المعرفي الأكثر شمولية. – و يا للخساسة – كيف يتجاهل الدور الفعال الذي لعبه الإسلام بعناصره الثقافية و تجاربه الروحية فـــي نشوء أوروبا و تطورها، ألم يكن الشرق هو المنبع؟. أضف إلى ذلك تلك المفارقة العجيبة التي تسوغ له وصف الفارس المسيحي " رولاند " يحب الله دون غيره من المسلمين. وكأن الذي يدافع عن حوضه ويرفض الولاء لـــ " شارلمان " يعبد الشيطان ولا يحب الله.

ومهما يكن من أمر، فإن ملحمة " أغنية رولاند " (Chanson de Rolland) حولت موقعه " رونسيفو" إلى حملة صليبية قبل الأوان، و جعلت " شارلمان " الإمبراطور أبا للمسيحية بتصديه للمسلمين و ببنائه الكنيسة " سان ماري لاتيني " في "بيت المقدس"، و لتحقيق هذا الهدف جعلت منه الملحمة شيخا خاض الكثير من المواقع و انتصر في كثير من الحروب، و حولت شخصية " رولاند Rolland» إلى فارس مسيحي يقاتل أعداء الله الملحدين [11].

وفي هذا السياق وصفت الملحمة في أبياتها الأولى المسلمين بأنهم كفار يعبدون محمد و لا يحبون الله."فريد الملك مارسيل الذي لا يحب الله. و يتبع " محمدا" ويعبد أبولوّ

و لم يتكلم أحد من الكفار، و أخيرا وقف بلانكاندرن" [12]

1-2-2 الكوميديا الإلهية لـــ " دانتي" Danté

يعدّ "دانتي أليخييري" (Danté Alighieri) من أعظم شعراء إيطاليا قاطبة ، ومن مشاهير الأدب العالمي عرف بملحمته الرائعة " الكوميديا الإلهية " (comédie divine) التي وصف فيها طبقات " الجحيم" و المطهر والفردوس في رحلة خيالية ذهنية، قام بها بقيادة فيرجيليوس و حبيبته "بياتريس" [13]

إن الغرب أدرك منذ العصور الوسطى أهمية الإسلام لذلك اتّخذ منه موقفا مزدوجا:

- أولا: ضرورة التعلم منه باعتباره الأقوى و الأعلم.

- ثانيا: محاربته لأنه عقيدة غريبة و معادية [14] في نظرهم و لا مشاحّة في الأمر، إذا كان "دانتي" قد أفرد للفيلسوفين: ابن سينا و ابن رشد مكانا في اللمبو [15].

و اللمبو في الكوميديا الإلهية هي ميناء جهنم أو المدخل إليها، و هي مقر عظماء العالم القديم الذين ماتوا و لم ينالوا التعميد المسيحي [16].

جمع دانتي في جحيمه كل الخيّرين من غير المسيحيين، فقد وضع نبي الإسلام محمد " صلى الله عليه و سلم " و ابن عمه الخليفة الراشدي الرابع بن أبي طالب- كرم الله وجهه – في الخندق التاسع من الحلقة الثامنة في الجحيم الذي يضم مثيري الصدمات و الإنقسامات الدينية و السياسية الذين يزرعون الفتن فيحصدون الأوزار" .(17)

لقد ظهر " محمد " – صلى الله عليه و سلم – فكان حسب زعمه – السبب في انقسام العالم انقساما جديدا، أما "علي" ففي عهده انقسم الإسلام إلى ثلاثة أجنحة متعادية، و لهذا فهو المذنب – عند دانتي – في تقسيم الإسلام و شق صفوفه، فشبّهه بـــ " جذع مقطوع الرأس " [18]

يرسم " دانتي" صورة لـــ " موميتو " ويعني" محمدا " –صلى الله عليه وسلم- تجسّد تركيبا سلاليا متصلّبا من الشرور، مع من يسميهم "ناشري الفضيحة والفتنة"، وعقاب محمد هو المصير الأبدي، عقاب يثير الاشمئزاز. فهو أبدا يقطع إلى نصفه من ذقنه إلى دبره، مثل برميل تمزّق أضلاعه كما يقول " دانتي" [19]

يواصل " دانتي" التجديف و القدح، مستمرا في تفصيل العقوبة الفظيعة، ويشير أيضا إلى الإمام " علي" – كرّم الله وجهه – فيجعله في صف الآثمين الذين يشقهم الشيطان الحارس إلى نصفين[20]، فيكفي "دانتي" تطاولا وغلظة أنّه أنزل أشرف شخصية عرفها التاريخ: الرسول – صلى الله عليه و سلم –

وأصحابه منزلة المجرمين دون حياء و لا وجل مدفوعا بغريزة الشر و الأحقاد.

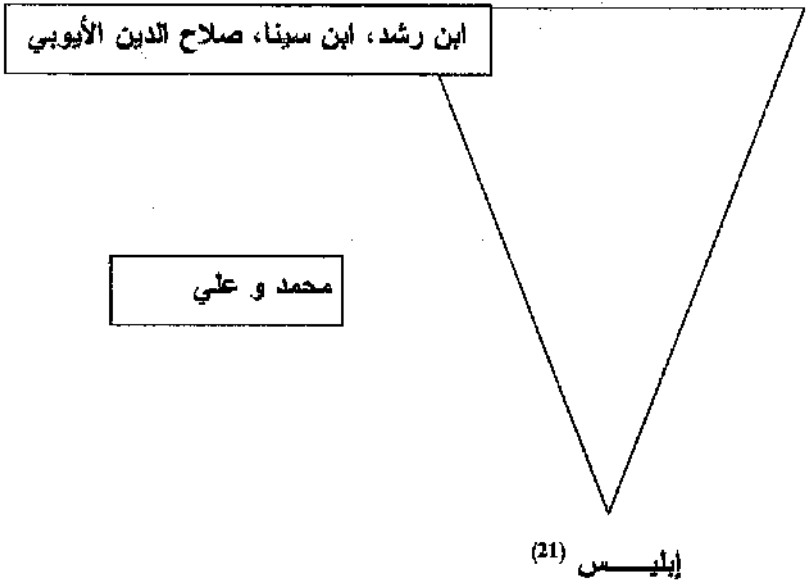

الخداع	1- غير المعمدين
العنف	
حب الشهوات	2- الشهوانيون
	3- الشرهون
	4- المبذلون و المفقرون
	5- الغاضبون
	6- المهرطقون
	7- الدجالون
	8- الخونة

عصر النهضة:

2-1 مسرحية " ماهوميت" (Mahomet) " لفولتير" (voltaire):

لم يغب الإسلام عن اهتمام النوابغ و أعلام القرن الثامن، وعلى رأسهم " فولتير" الذي اهتم بالحديث عن الرسول – صلى الله عليه و سلم – دون تدقيق و لا تمحيص، معتمدا في تأليفه لهذا العمل التراجيدي الموسوم " ماهوميت" (Mahomet) على بعض المؤلفات العلمية و الأدبية التي راجت في عصره نح ""حياة محمد" لـــ"لكونت دي بولينفيلي" و"سيرة محمد" "لجان عرينيه" دون أن يكلف نفسه عناء البحث و التنقيب في الوقائع و الأحداث التاريخية الحقيقية في الجزيرة العربية [22].

لقد تمثل فولتير " voltaire" الرسول – صلى الله عليه وسلم – نموذج التعصب الديني و الطغيان الثيوقراطي الذي يستغل مشاعر الناس لتحقيق مآربه وبلوغ غاياته الشريرة [23]. ويضيف فولتير قائلا إلى أحد أصدقائه " إنني أصوّر محمدا متعصبا، عنيفا و محتالا، و عارا على الجنس البشري... " محمد إنه يجسد خطر التعصب" [24].

و في "رسالة إلى ملك بروسيا" يصف فولتير شخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – " محمد ليس عندي سوى مرّاء « Tartuffe» بيده سلاح" [25].

و هكذا يتضح بجلاء أن "فولتير" لم يكلف نفسه البحث و فهم ظروف نشأة الإسلام وجوهر العقيدة. " محمد " صلى الله عليه و سلم عند "فولتير" هو شخص سلبي يشبه الأمير le prince لـــ " ميكيافيل " "Machiavel " في صفاته و أعماله.

هذه السمات بالذات هي التي حوّلته إلى طاغية مستبد على رأي فولتير. [26]

من هنا نلاحظ أن "الغرب" أو "الآخر" لم يتخلص من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام و رجاله. ولعل المسرحية التي كتبها " فولتير" بعنوان " ماهوميت" ما هي إلا تعبير عن موقف عدائي شعوبي يجهر بالأحقاد، و الأنكى في الأمر، أننا نتعجب من رأي "العقاد" الذي حاول أن يجد لـــ "فولتير" تبريرا فنيا كون " فولتير" اصطنع طريقة تعبيرية مغلّفة بالرمز للتهجم على رجال الدين في عصره وعلى الكنيسة.

يقول العقاد << لم يشأ "فولتير" أن يهجم على سلطان الدين في الغرب هجمة صريحة، و كان يهمه عند كتابة تلك المسرحية أن يعلن آراءه و لا يتعرض من جرائها للسخط و الحرمان، فاتخذ ذلك الأسلوب المنحرف، و لم يكترث لحقائق التاريخ و لا للأدب في الخطاب، و نسب إلى النبي أمورا كان يريد أن ينسبها إلى الجامدين من رجال الدين >> (27).

إلاّ أنّ هذا التبرير مهزوز و مرفوض، أو لم يجد " فولتير" سوى الرسول – صلى الله عليه و سلم – ليجعل منه مشجبا أو بوقا يصب فيه جام غضبه و حنقه، المسألة – في رأيي – أبلغ و أكثر شمولية، لأنها تعزّز اتجاهه الفكري التحرري المناهض للدين بصفة عامة، و في هذا السياق يقول "أندري مروا" (André Maurois) عن " فولتير" "يشتهر بالفلسفة الدينية أو بالأحرى اللادينية " (28)

"Il est surtout célèbre pour sa philosophie religieuse ou plus exactement irréligieuse."

و يضيف أيضا "لقد اشتققنا من اسمه مصطلح "الفولتيرانية" الذي تعرّفه القواميس بالزندقة أي السلوك الساخر و الإستهتار بالديانات " (29).

"On a tiré de son nom un substantif : Voltairianisme que les dictionnaires définissent :attitude d'incrédulité à l'égard des religions "

في الختام نخلص إلى جملة من النتائج المهمة نذكر منها:

– أن الغرب ابتدءا من العصور الوسطى حتى عصر النهضة – اتخذ من الإسلام موقفا مناوئا عدائيا ينضح بالكراهية و ينطق بالشعوبية.

– الأدب بمختلف أجناسه كان مطية اتخذها الغرب للدفاع عن مسيحيتهم ونشر تصورات غريبة خطيرة في منتهى الخيالية المرضية و التوهم عن الإسلام.

– الهدف من التجديف هو غرس في الوعي الغربي طائفة من الادعاءات والأضاليل كوصف "محمد" – صلى الله عليه وسلم – بالسحر والخداع والشهوانية، وأنه معاد للمسيح أو أنّه الشيطان ذاته ونبي مزيف.

- تصوير الإسلام على أنه لون من الهرطقة.
- تحويل المسلمين وتنصيرهم ومن ثم القضاء على الإسلام فالهوية.

فالصورة التي رسمها الغرب للعرب والمسلمين سلبية تنم عن موقف مشحون بالكراهية و الأحقاد وتكشف حقيقة الآخر.

الهوامش

1) الآية 13 سورة الحجرات.

2) الإسلام والمسيحية، أليكسي جورافسكي، ترجمة: د. خلف محمود الجراد عالم المعرفة 215 سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب- الكويت ص ص 24-25.

3)المسرح في العصور الوسطى – الديني و الهزلي – عبد الرحمان صدقي الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر – دار الكتاب العربي ص 95.

4)المرجع نفسه ص 97.

5)المرجع نفسه ص 98.

6)المرجع نفسه ص 98 -99

7)المرجع نفسه ص 100

8)نظرية الأدب المقارن و تحليلها في الأدب العربي د. أحمد درويش، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع – القاهرة- 2002 ص 119.

9)المرجع نفسه ص 119.

10)المرجع نفسه ص 119-120

11)المرجع نفسه ص 129.

12)المرجع نفسه ص 130.

13)الإسلام و المسيحية ص 67.

14-15-16-17-18) الإسلام و المسيحية ص 67.

19-20) الإسلام و المسيحية ص 68.

21) الكوميديا الإلهية ترجمة حسن عثمان دار المعارف

22-23-24) المرجع السابق ص 100.

25-26) المرجع السابق ص 101.

27) الإسلام دعوة عالمية محمود عباس العقاد ص 27.

28) André Maurois, *les pages immortelles de Voltaire*, édition corrêa, Paris, P 17

29) Ibid, p. 17.